



محمّد مهدي الآصفي

اسم الكتاب: .... الفئات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام
المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الأولى: .... ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م
المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

آفاق الثورة الحسينية:

سيرة الحسين عليه السلام من الحجاز إلى العراق وشهادته وشهادة الكوكبة التي حفت به، في الحركة إلى لقاء الله، من أهل بيته وأصحابه ... سيرة غنية بالأفكار والمفاهيم، وتتصل هذه الأفكار والمفاهيم في الغالب بحياتنا اليومية، في حقول السياسة والثقافة والعلاقات الاجتماعية.

ولذلك فهي تستحق الكثير من التوقف والتأمل والدراسة، ورغم الدراسات الكثيرة لـ(عاشوراء) فلا يزال هذا الحدث العظيم يكتنز الكثير من المفاهيم والأفكار والقيم، ويجد الباحث في(عاشوراء) أمامه آفاقاً ورؤى جديدة لم يكتشفها الباحثون والمنظرون إلى هذا اليوم.

ونحن هنا نحاول أن نلقي نظرة على الجماعات المعارضة

لخروج الحسين عليه السلام من الحجاز إلى العراق لإعلان الخروج والثورة على حكومة بني أمية.

تصنيف الناس تجاه الثورة الحسينية:

بإمكاننا أن نصنف الناس من حيث موقعهم من الحسين عليه السلام في عاشوراء إلى خمسة أصناف.

١ـ أهل بيت الحسين عليه السلام وأصحابه الذين صحبوه إلى لقاء الله، وهم القمة الشامخة التي يعرفها التاريخ من التسامي والتعالي على الدنيا والتضحية والإيثار والعطاء والصمود والقيم والإخلاص.

٢ـ الفئات المعارضة التي كانت تعارض خروج الإمام إلى العراق للخروج على حكومة بني أمية، إشفاقاً على الإمام عليه السلام حيناً، وتظاهراً بالإشفاق حيناً آخر.

٣ـ المتفرجون، وهم الكثرة الكاثرة من الأمة يومئذ. وقد علموا أن الحسين عليه السلام خرج على طاغية عصره، للأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وعرفوا ما يقترفه بنو أمية من الإثم والعدوان في هذه الأمة والتبذير والبذخ في بيت المال والإفساد في الساحة، ولكنهم آثروا العافية ووقفوا موقف المتفرج ينتظرون نهاية هذا المشهد الأليم (إنا ها هنا قاعدون).

٤ـ القتلة الذين اقترفت أياديهم قتال ابن رسول الله والكوكبة الطاهرة التي رافقته إلى الله، وإذا كانت الفئة الأولى قمة في التوحيد والإخلاص والقيم والخلق والصمود والعطاء والوعي.... نجد إن هذه الفئة في حضيض السقوط والشقاء والبؤس.

٥ـ الفئة الخامسة هي التي لم تشارك في القتال، ولكنها أعلنت عن رضاها ودعمها وإسنادها للقتلة، وتنكرت لخروج السبط الشهيد على حكومة بني أمية.

وكل واحدة من هذه الفئات الخمسة تحتاج إلى دراسة

دقيقة وتوقف وتأمل طويلين... ولا تقل حاجتنا إلى دراسة الفئات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة عن حاجتنا إلى دراسة الفئة الأولى. فان هذه الدراسة بإبعادها الخمسة لصيقة الصلة بحياتنا السياسية والثقافية والاجتماعية... وفيما يلي نتوقف ونتأمل في دراسة الجماعات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام من الحجاز إلى العراق.

١. تصنيف المعارضة

دراسة الساحة المعارضة لخروج الحسين عليه السلام والمثبطين والمعارضين تعكس لنا صورة دقيقة عن الأوساط المعارضة للعمل الإسلامي والحركة والثورة الإسلامية في الساحة الإسلامية المعاصرة.

إن التثبيط نفس التثبيط، والمعارضة نفسها، وعوامل ومصادر المعارضة للثورة نفسها.

يريد الحسين عليه السلام الخروج على طاغوت عصره فيواجه مساحة واسعة من المعارضة، كما تواجه القيادات الإسلامية للثورة الإسلامية نفسها هذه المعارضة عند أي تحرك سياسي.

وأسباب هذه المعارضة وعواملها في الساحة السياسية يومذاك ثلاثة:

١ـ الحسد والضغينة.

٢ـ الضعف والجبن والتخاذل.

٣ـ الجهل وفقدان الوعي السياسي.

وسوف نذكر أمثلة على هذه العوامل الثلاثة.

العامل الأول للمعارضة: العداء والحسد والحقد.

من ابرز مصاديق هذه الحالة عمرو بن سعيد الأشدق عامل بني أمية على مكة، كتب إلى الحسين عليه السلام عندما علم بخروجه عليه السلام إلى العراق، يطلب منه أن يعدل عن الخروج

ويعده بالأمان إذا عدل عن الخروج.

وعلى هذه الرسالة مسحة خفيفة من النصيحة الكاذبة، كما تستبطن الكثير من المكر والكيد والخبث والحقد.

وقد قرأ الحسين عليه السلام هذه الرسالة وردّها بأدب وصرامة وقوة كعادته عليه السلام في مواجهة أمثال هذه الحالات.

وإليك الرسالة وردّها:

يقول عمرو بن سعيد الأشدق في رسالته للإمام الحسين عليه السلام :

(إني أسأل الله أن يلهمك رشدك، وأن يعرّفك عما يُراد بك، بلغني إنك قد عزمت على الشخوص إلى العراق، فإني أعيذك بالله من الشقاق، فإن كنت خائفاً فاقبل إليّ فلك عندي الأمان والصلة).

فكتب إليه الحسين عليه السلام :

(أما بعد، فانه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله

عزّوجلّ وعمل صالحاً، وقال إنني من المسلمين. وقد دعوت إلى الأمان والبر والصلة فخير الأمان أمان الله عز وجل، ولم يؤمّن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا، فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا أمانة يوم القيامة.

فان كنت نويت بالكتاب صلتي وبريّ فجزيت في الدنيا والآخرة والسلام)[1]

والذي يستعرض موقف عمرو بن سعيد الأشدق لا يشك أن الأشدق كان يدبّر للحسين عليه السلام مؤامرة يستعيد فيها الحسين عليه السلام إلى مكّة ثم يغتال الحسين عليه السلام في الحرم، حيث لا يستطيع الحسين عليه السلام أن يقاتل بني أمية.

والحسين عليه السلام لا يريد أن يقتل في الحرم مكتوف اليدين.

١ـ وقعة الطف المستخرجة من تاريخ الطبري تحقيق الشيخ هادي اليوسفي: ١٥٥ ط. مؤسسة النشر الإسلامي. وبلفظ قريب منه تاريخ ابن عساكر ١٣: ٧٠.

ولا نحتاج إلى تأمل طويل لنعرف أن أسلوب الحسين عليه السلام في الخروج من المدينة إلى مكة على الطريق العام (الجادة الرئيسية بين مكة والمدينة) ثم مقامه في مكة بدار العباس بن عبد المطلب، ثم إعلانه للمغادرة إلى العراق، كان بهدف التعبير والإعلان عن رفضه للبيعة، ولو كان الإمام يريد أن يتجنب البيعة فقط، دون تنبيه وإلفات الرأي العام الإسلامي لهذا الموقف السياسي لما احتاج إلى كل هذه الخطوات التي كلفتّه وكلفّت أهل بيته وأصحابه كثيراً، وأثارت عليه سخط بني أمية وغضبهم، وكان بوسعه أن يعتزل بني أمية في صقع من أصقاع الأرض، من دون هذا الإعلان والإشهار.

وقد اتفقت المصادر التاريخية أن الحسين عليه السلام خرج من مكة إلى العراق يوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية)، عندما كان الحجاج يتوجهون إلى عرفات، استعداداً ليوم

عرفة، وقد أثار خروج ابن بنت رسول الله ﷺ يوم التروية ـ من بين الحجاج ـ إلى العراق انتباه عامّة الحجاج الذين كانوا قد أمّوا البيت الحرام من مختلف الآفاق. فهذا ابن بنت رسول الله ﷺ يحلّ من العمرة ويغادر مكة في وقت يتوجه فيه الحجاج إلى عرفات لأداء الحج[1].

العامل الثاني للمعارضة: الضعف عن القرار الصعب.

وهو من أقوى عوامل التثبيط. ونضرب مثلا لذلك بموقف عبد الله بن عمر من المعارضة.

ونحن لا نستطيع أن نتهم عبد الله بالمكر بالحسين عليه السلام ولكن نجد في موقفه من معارضة حركة الحسين عليه السلام علامة ضعف واضحة.

فقد كان عبد الله شخصية ضعيفة، وضعفه جرّ عليه كثيراً

١ـ في رحاب عاشوراء: ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

من الابتلاءات فقد امتنع أولاً عندما رشّح معاوية ابنه يزيد لولاية العهد عن البيعة وقال: إنه لا يبايع لأميرين في وقت واحد[1].

وهو جواب ضعيف وموقفه أضعف منه فإن معاوية لم يطلب منه أن يبايع يزيد أميراً ليصح منه هذا العذر وإنما طلب منه أن يبايعه ولياً للعهد.

ولم يكن عبد الله ليملك القوة والجرأة الكافية التي تمكّنه من اتخاذ موقف جريء تجاه البيعة ليزيد فقد كان أمر يزيد في الفسق والشرب أشهر من أن يخفى على أحد، وقد كان أولى بابن عمر أن يردّ معاوية عن هذا الأمر، ويعلن امتناعه عن البيعة ليزيد لما يعرفه فيه هو وعامّة المسلمين من فسوق وفجور.

إلاّ أن ابن عمر لم يكن يملك هذه الجرأة والشجاعة،

١ـ فتح الباري: ١٣: ٦٠.

ولم يكن يريد أن يسرع في البيعة قبل غيره من المسلمين، فاعتذر لمعاوية بهذا الجواب الضعيف. فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم، فأخذها، فدسّ إليه رجلاً فقال له: ما يمنعك أن تبايع؟ فقال: إن ذاك لذاك (يعني أن ذلك المال لأجل البيعة) إن ديني إذن لرخيص[1].

ولم يروِ لنا التاريخ أنه ردّ المال أو أنكر على معاوية هذا الأسلوب الملتوي الماكر في اخذ البيعة ليزيد[2].

كما أن موقفه من الحسين عليه السلام فيه غطاء رقيق من النصح ولكن فيه أيضاً إيهام بأن خروج الحسين عليه السلام خروج عمّا دخل فيه المسلمون ،وفيه دعم وتأييد لسلطان يزيد. وقد استدرج هذا الموقف عبد الله إلى دعم وتأييد يزيد بصورة تدريجية، وأدى ذلك إلى استحداث مذهب سياسي فقهي

١ـ المصدر السابق.

٢ـ وارث الأنبياء: ١٥٣ ـ ١٥٤ .

ابتدعه عبد الله ودخل هذا المذهب من خلال رواياته في الثقافة الإسلامية وهذا المذهب هو مهادنة الظالم والسكوت عنه وتحريم الخروج عليه.

فإن المعروف عن عبد الله بن عمر انه كان يرى وجوب الانقياد للحاكم، مهما كان ظلمه، ومهما بلغ جوره، واعتداؤه على المسلمين، وإعلانه للفسق والفجور، ويرى وجوب الاستمرار في الطاعة، وحرمة خلع اليد من الطاعة، وكان يسعى برأيه هذا فيما بين الناس ويروّض الناس لطاعة الخليفة الفاسق يزيد بن معاوية قبل وبعد وقعة الحرّة التي انتهك فيها يزيد بن معاوية حرمات الإسلام والمسلمين، وبالغ في سفك الدماء وانتهاك الحرمات... فاستمع إلى الحديث التالي:

روى مسلم عن أبي رافع عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**ما من نبيّ بعثه الله في أمة قبلي إلاّ كان في**

أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنّته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلّف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل».

قال أبو رافع: فحدّثت عبد الله بن عمر فأنكره عليّ، فقدم ابن مسعود فنزل بقناة، فاستتبعني إليه عبد الله بن عمر يعوده، فانطلقت معه فلمّا جلسنا سألت ابن مسعود عن هذا الحديث فحدّثنيه، كما حدثت ابن عمر[1].

إن من حقنا أن نسمح لأنفسنا بالشك في موقف عبد الله بن عمر من شرعية الخروج والمعارضة السياسية والمسلحة

١ـ صحيح مسلم ١: ٥٠ ـ ٥١، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان . ط. دار الفكر ـ بيروت ـ.

للحكام الظلمة، وفي موقفه الاستسلامي من قبل من البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية من دون اعتراض أو تردد، وفي موقفه الضعيف الأول من قبول هدية معاوية والاعتذار إليه بأنه لا يريد أن يبايع لأميرين في وقت واحد.

وإن من حقّنا أن نحتمل أن معاوية قد استطاع أن يستغل ضعف عبد الله وسذاجته أسوأ استغلال، وأن يلين عوده للبيعة ليزيد ويروّضه على ذلك بأساليبه الماكرة الملتوية المعروفة، والتي لم تخف حتى على عبد الله بن عمر نفسه، بما عرف من بساطة وسذاجة، حتى قال لرسول معاوية: (إن ذاك لذاك، إن ديني عندي إذن لرخيص)[1].

العامل الثالث للمعارضة: عدم وعي أهداف الثورة

لقد كان البعض يتصور أن الإمام الحسين عليه السلام خرج على يزيد لينتزع منه الحكم والسلطان، وليتولاه بنفسه.

١ـ وارث الأنبياء : ١٥٦.

فهو حقه، وليس ليزيد حق فيه. لاشك في ذلك.

وهـذه كانـت وجهـة نظـر الإمـام﵇ عنـدما خـرج مـن الحجاز إلى العراق، تلبية لدعوات شيعته لـه، إلـى الخـروج على يزيد.

وكـان هـؤلاء يعرفـون جيـدا أن أهـل العـراق لا يفـون للحسين﵇ بعهودهم، وسوف يتخلّون عنـه، إذا جـدّ الجـدّ، والذين يفون له﵇ ببيعتهم، ويقفون معه إلى الأخيـر قلـة لا تقاوم جيوش بني أمية... إذن الإمام﵇ يسعى بنفسه في هذه الرحلة إلى مصرعه... وكان ذلك يحزّ في أنفسهم ويحزنهم، فيقبلون عليه، ويسألونه أن يكف عن الذهاب إلى العراق.

ولـم يكـن يخفـى علـى الإمـام﵇ مـا يعرفـه هـؤلاء الناصـحون لـه، الـذين لـم يكـن الإمـام يشـك فـي صـدقهم ونصحهم وحبهم.

ولا يمكـن أن نتصـور أن الإمـام﵇ كـان يرجـو فـيمن

يجتمع حوله مـن شـيعته فـي العـراق أن يقـاوم بهـم جيـوش الشام، فضـلاً عـن العـراق... وقـد عـاش الإمـام﵇ مـن قبـل ظروف تخاذل الناس في العـراق عـن أبيـه فـي صـفين وعـن أخيه الحسن﵇ بعد وفاة أبيه... فماذا يمكن أن يرجو الإمام في الناس بعد هاتين التجربتين.

لقد كان الإمام يطلـب فـي خروجـه أمـراً آخـر، يختلـف كثيراً عما كان يتصور عبد الله بن عباس وعبد الله بـن جعفـر ومحمد بن الحنفية ﵀ ونظراؤهم من الناصحين له.

كان الإمام يطلب في خروجه أن يهزَّ ضمير الأمة بملحمة مأساوية تنتهي بمصـرعه وبمصـرع أهـل بيتـه وأصـحابه فـي سبيل الأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، والإنكـار علـى يزيد وإدانتـه، فيرتـاع النـاس لـذلك ويعـودون إلـى أنفسـهم ورشدهم، ويحيي بذلك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليواجه الناس بها طغاة بني أمية ويكسر حاجز الرهبة

والخـوف، ويسـقط شـرعية الخلافـة الأمويـة فـي أنظـار المسلمين، ويجردها عـن قيمتهـا الشـرعية التـي كـان النـاس يعرفونها من قبل للخلفاء.

إذن لم يكن الإمام يطلب في خروجه زحفاً عسكرياً على جيش الشام وحكامها كما يصنع القادة العسكريون، ولو كان يطلـب شـيئاً مـن ذلـك لكـان الحـق لأولئـك الـذين كـانوا ينصحون الإمام بالامتناع عن الخروج إلى العراق.

وليس ما نقوله هنـا نـوع مـن التوجيـه السياسـي والثقـافي لخروج الحسين عليه السلام بعـد مصـرعه عليه السلام الـدامي فـي كـربلاء، ومصـرع أنصـاره رحمهـم الله، وإنمـا نقتـبس هـذا التفسـير لخروجه من آخر خطـاب ألقـاه فـي النـاس فـي مكـة، عنـد خروجه إلى العراق حيث نعى نفسه وأهل بيته وأصحابه إلـى المسلمين يومئذ.

ولا يمكن أن يقدم على هذا العمل قائد عسـكري ينـوي

أن يخرج على طاغية عصره لينتـزع منـه الحكـم والسـلطان، ويحل محله... إن هذا الخطاب في عرف القـادة العسـكريين تثبيط للناس، وليس دعوة إلى الخروج على الحاكم الظالم.

ولـم يكـن الأمـر يخفـى عـن الإمـام عليه السلام ، ولا يمكـن أن يخفى عليه مثل ذلك ولكن الإمام كـان يطلـب فـي خروجـه أمراً آخر أعلنـه، وصرّح بـه، ولـم يتفقهـه النـاس مـن حولـه يومذاك.

...هـؤلاء طائفـة ثالثـة مـن المثبطـين للحسـين عليه السلام والمعارضين لخروجه.

ونحن لا نتهم هؤلاء بالعـداوة ولا بالضـعف، ويكفـي أن فيهم عبـد الله بـن عبـاس، وعبـد الله بـن جعفـر، ومحمـد بـن الحنفية (رحمهم الله)... إلاّ أننـا لا نشـك أنهـم لـم يسـتوعبوا حركة الحسين عليه السلام ، وقضية معارضتهم كانت نابعة من هـذه النقطة.

وفيما يلي نضرب بعض الأمثلة، ونأتي ببعض الشواهد على هذه الطائفة من الذين نصحوا الإمام عليه السلام بعدم الخروج، وعزّ عليهم أن يخرج ابن رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مصرعه، واليك بعض النماذج من موقف هؤلاء الناصحين:

١. المسور بن مخرمة

ذعر المسور بن مخرمة[1] حينما سمع بعزم الإمام على مغادرة الحجاز والتوجه إلى العراق فكتب إليه هذه الرسالة:

(إياك أن تغتر بكتب أهل العراق، ويقول لك ابن الزبير: الحق بهم فإنهم ناصروك، إياك أن تبرح الحرم، فإنهم -أي أهل العراق- إن كانت لهم بك حاجة فسيضربون آباط الإبل

١ـ المسور بن مخرمة بن نوفل القرشي الزهري، ولد بعد الهجرة بسنتين، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وكان من أهل الفضل والدين، كان مع ابن الزبير فلما كان حصار مكة أصابه حجر من حجارة المنجنيق فتوفي. جاء ذلك في الإصابة ٣: ٤٠٠.

حتى يوافوك، فتخرج إليهم في قوة وعدة).

ولما قرأ الإمام رسالته أثنى عليه: وقال لرسوله: «**استخير الله في ذلك**»[1].

٢. عبد الله بن جعفر

وخاف عبد الله بن جعفر على ابن عمه حينما علم بعزمه على التوجه إلى العراق، وشق عليه ذلك، فبعث إليه بابنيه عون ومحمد، وكتب معهما هذه الرسالة:

(أما بعد، فإني أسألك الله لما انصرفت حين تقرأ كتابي هذا فإني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك، واستئصال أهل بيتك، إن هلكت اليوم أطفأ نور الأرض فإنك علم المهتدين ورجاء المؤمنين، فلا تعجل بالسير فإني في أثر كتابي والسلام).

١ـ تاريخ ابن عساكر ١٣: ٦٩، من مصوّرات مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وأسرع ابن جعفر وهو خائر القوى ذاهل اللب إلى عمرو بن سعيد حاكم مكة فأخذ منه كتاباً فيه أمان للحسين عليه السلام، وجاء مسرعاً إليه وكان معه يحيى بن سعيد بن العاص، فعرض عليه الإقامة في مكة وعدم النزوح إلى العراق فلم يستجيب الإمام له، وأخذ عبد الله يلتمس إليه ويطلب منه أن ينصرف عن نيته، فقال الإمام:

«**إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في منامي، وأمرني بأمر لابدّ أن انتهي إليه..**».

فسأله ابن جعفر عن الرؤيا، فأبى أن يحدثه بها، وقال له: «ما حدثت بها أحداً، وما أنا بمحدّث بها حتى ألقى الله عز وجل»[1]. وانصرف ابن جعفر وهو غارق بالأسى والشجون وأيقن بنزول الرزء القاصم وقد أمر إبنيه بمصاحبة خالهما الحسين عليه السلام.

١ـ تاريخ الطبري ٦: ٢١٩، البداية والنهاية ٨: ١٦٣، سير أعلام النبلاء ٢: ٣٤٣ .

٣. عبد الله بن عباس

وأسرع عبد الله بن عباس وهو حزين كئيب إلى الإمام، فقال له: (إن الناس أرجفوا بأنك سائر إلى العراق، فهل عزمت على شيء من ذلك؟).

فقال الإمام عليه السلام:

«**نعم، قد أجمعت على المسير في أحد يومي هذين إلى الكوفة أريد اللحاق بابن عمي مسلم إن شاء الله تعالى**».

وفزع ابن عباس فقال للإمام:

(إني أعيذك بالله من ذلك، أخبرني أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم، فإن كان قد فعلوا سِرْ إليهم وإن كانوا إنما دعوك وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعمّالهم تجبي بلادهم، وتأخذ خراجهم فإنما دعوك إلى الحرب، ولا آمن عليك أن يغروك، ويكذبوك، ويخذلوك، ويبيعوك، فيكونوا أشدّ الناس عليك).

ولم يخف شيء من هذه النقاط على الإمام عليه السلام، فقد كان على بصيرة من أمره فقال لابن عباس:

«**إني أستخير الله، وأنظر ماذا يكون؟**».

وأحاطت بابن عباس موجة من القلق والاضطراب، فلم يمتلك نفسه، فراجع الإمام، وقال له:

(إني أتصبّر، ولا أصبر إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال... إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربهم، أقم في هذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدوك ـ كما زعموا ـ فاكتب إليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم، ثم أقدم عليهم، فإن أبيت إلاّ أن تخرج فَسِرْ إلى اليمن فإن بها حصوناً، وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة، فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية...).

فأخبره الإمام عن تصميمه على مغادرة الحجاز إلى العراق، وأنه قد بتّ به، فقال له ابن عباس: (إن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك، فإني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه... لقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك).

وفقد ابن عباس صبره، واندفع إلى الإمام بانفعال قائلاً ـ حسبما يروي المؤرخون ـ:

(والله الذي لا إله إلاّ هو لو أعلم إني إن أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علينا الناس أطعتني فأقمت لفعلت) ولم يخف على الإمام كل ما قاله ابن عباس، ولم يكن يخفى على الإمام نصحه وصدقه في النصيحة، إلاّ أن الإمام كان قد عزم على الخروج للدفاع عن حمى الإسلام.

وخرج ابن عباس وهو يتعثر في خطاه، قد نخر الحزن

قلبه فاتجه نحو ابن الزبير فقال له:

(لقد قرّت عينك يا ابن الزبير، ثم أنشد:

يا لك من قنبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت أن تنقري

هذا الحسين يخرج إلى العراق ويخليك والحجاز...)[1].

إن الإمام لو كان يروم الملك والسلطان لاستجاب لرأي ابن عباس ولكنه عليه السلام كان يبتغي أمراً آخر غير ما يفهمه ابن عمه وكان يعلم أن ذلك لا يتحقق إلاّ من خلال تضحية مأساوية فهي وحدها التي تحقق ما يصبو إليه.

٤. أبو بكر المخزومي

وهرع أبو بكر بن عبد الرحمن المخزومي[2] إلى الإمام

١ـ تاريخ ابن الأثير ٣: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

٢ـ أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي القرشي أحد الفقهاء

فقال له: (إن الرحم يظأرني[1] عليك ولا أدري كيف أنا في النصيحة؟ كان أبوك أشدّ بأساً، والناس له أرجى، ومنه أسمع، وعليه أجمع فسار إلى معاوية، والناس مجتمعون عليه إلاّ أهل الشام ـ وهو أعزّ منه ـ فخذلوه، وتثاقلوا عنه، حرصاً على الدنيا، وضناً بها فجرعوه الغيظ، وخالفوه حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه... ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ـ وقد شهدت ذلك كله ورأيته ـ ثم أنت تسير إلى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق، ومن هو أعدى منك، وأقوى، والناس منه أخوف، وله أرجى، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطعموا

السبعة، ولد في خلافة عمر، وكان يقال له راهب قريش لكثرة صلاته، وكان مكفوفاً، وهو من سادات قريش توفي سنة (٩٥ هـ). جاء ذلك في تهذيب التهذيب: ٢: ٣٠.

١ـ يظأرني: أي يدفعني عليك العطف والحنو.

الناس بالأموال ـ وهم عبيد الدنيا ـ فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك، ويخذلك من أنت أحبّ إليه من ينصره، فاذكر الله في نفسك...).

وشكر له الإمام نصيحته وحبه، وعرفه أنه مصمم على ما عزم عليه، ويئس أبو بكر فانطلق وهو يقول:

(عند الله نحتسب أبا عبد الله).

وأقبل أبو بكر على والي مكة وهو يقول:

كم ترى ناصحاً يقول فيعصى وظنين المغيب يلقى نصيحا

فقال له:

(ما ذاك يا أبا بكر؟

فأخبره بما قال للحسين عليه السلام : فقال له: نصحت له وربّ الكعبة)[1].

١ـ مروج الذهب ٣: ٦، الطبري ٦: ٢١٦.

٥. عبد الله بن جعدة

وأشفق عبد الله بن جعدة بن هبيرة على الإمام فألحق به ولده عون وبعث إليه رسالة يسأله فيها الرجوع، ويذكر فيه تخوفه في مسيره إلى العراق، فلم يستجب الإمام له، وقال له خيراً[1].

٦. جابر بن عبد الله

وخفَّ جابر بن عبد الله الأنصاري رحمه الله إلى الإمام وطلب منه أن لا يخرج فأبى عليه السلام[2].

٧. عبد الله بن مطيع

والتقى الإمام بعبد الله بن مطيع، وكان في طريقه إلى العراق، وعرف عبد الله قصد الإمام عليه السلام فقال له:

١ـ أنساب الأشراف: ق١ ج ١.

٢ـ تاريخ الإسلام للذهبي ١: ٣٤٢.

(يا ابن رسول الله أذكرك الله في حرمة الإسلام أن تنتهك، أنشدك الله في حرمة قريش وذمة العرب، والله لئن طلبت ما في يد بني أمية ليقتلوك، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً... والله أنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب. فالله الله لا تفعل، ولا تأت الكوفة، ولا تعرض نفسك لبني أمية)[1].

٨ـ محمد بن الحنفية

وكان محمد بن الحنفية في المدينة، فلما علم بعزم أخيه على الخروج إلى العراق توجه إلى مكة[2]، وقد وصل إليها في الليلة التي أراد الخروج في صبيحتها إلى العراق، وقصده فور وصوله فبادره قائلاً:

١ـ وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل: ١٨٩، وحياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي: ٢٩ ـ ٣٠.

٢ـ تاريخ الإسلام للذهبي ١: ٣٤٢.

(يا أخي، إن أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك حال من مضى، فإن أردت أن تقيم في الحرم فإنك أعزّ من بالحرم، وأمنعهم).

وشكر له الإمام نصحه وقال له:

«**خفت أن يغتالني يزيد بن معاوية، فأكون الذي تستباح به حرمة هذا البيت**».

فقال محمد: (فإن خفت ذلك فسر إلى اليمن أو بعض نواحي البر فإنك أمنع الناس به، ولا يقدر عليك أحد).

قال الحسين عليه السلام : «**أنظر فيما قلت**»[1].

ولما كان وقت السحر بلغه شخوصه إلى العراق وكان يتوضّأ فبكى حتى سمع وقع دموعه في الطست[2] وأسرع

١ـ الدر المسلوك ١: ١٠٩، وقريب من هذا الحديث ما جرى بين الإمام وأخيه حينما كان في المدينة.

٢ـ أنساب الأشراف: ق١ ج١، وفي الصواعق المحرقة: ١٧٠: أنه بكى حتى

محمد إلى أخيه، فأخذ بزمام ناقته، وقال له:

(يا أخي ألم تعدني فيما سألتك؟).

«بلى، ولكن أتاني رسول الله ﷺ بعد ما فارقتك، وقال لي: يا حسين، اخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلاً».

وذعر محمد، وسرت الرعدة بأوصاله، ودموعه تنحدر على خديه وهو يقول:

(فما معنى حمل هؤلاء النساء والأطفال، وأنت خارج على مثل هذا الحال).

فأجابه الإمام بعزم وطمأنينة قائلاً:

«قد شاء الله أن يراهن سبايا»[1].

* * *

ملأ الطست من دموعه.

١ـ الدر المسلوك ١: ١٠٩ .

٩. السيدة أم سلمة(ام المؤمنين)

وفزعت أم المؤمنين السيدة أم سلمة حينما علمت أن الإمام عليه السلام قد عزم على الخروج إلى العراق، وكان في ذلك الوقت في المدينة قبل أن يتوجه إلى مكة فهرعت إليه قائلة بصوت حزين النبرات:

(يا بني لا تُحْزنّي بخروجك إلى العراق فإني سمعت جدك رسول الله ﷺ يقول: **يقتل ولدي الحسين بأرض العراق في أرض يقال لها: كربلاء**، وعندي تربتك في قارورة دفعها إليّ النبي ﷺ).

فأجابها الإمام بعزم ورباطة جأش قائلاً:

«يا أماه، وأنا أعلم إني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً، وقد شاء عزّوجلّ أن يرى حرمي ورهطي مشردين، وأطفالي مذبوحين، مأسورين».

* * *

هـذه ثلاثـة عوامـل ومصـادر للمعارضـة: (المكـر)، و(الضعف)، و(العجز في الوعي).

وقد ساهمت هذه العوامل الثلاثة في تكوين المعارضة الشديدة التي واجهها الإمام الحسين عليه السلام عند الخروج من الحجاز إلى العراق.

صنفان من الناس مع الحسين عليه السلام

وإلى جانب هذه الأصناف الثلاثـة التـي شكلت الجبهـة المعارضة لحركة الحسين عليه السلام رحل مع الحسين عليه السلام صنفان من الناس:

الصـنف الأول: نخبـة مـن المـؤمنين وعـوا قضـية الحسين عليه السلام وانقادوا واستسلموا له، وخرجوا معه عليه السلام من غير نقاش، ولا ترديد، ولا تشكيك، ولا اعتذار، وهم النخبة الصالحة التي ثبتت مع الحسين عليه السلام إلى الأخير وقد غيّروا بهذا الوعي والعطاء والصمود النادر مجرى التاريخ.

والصـنف الثـاني: وهـم طائفـة مـن النـاس حسـبوا أن الحسين عليه السلام غير جاد فيما يقول من أمر الاستشهاد والموت، ويسعى إلى تحصيل الحكم والسلطان.

فلما جدّ الجد ووجدوا أن الحسين عليه السلام جاد فيما يقول تركوه وتخلوا عنه.

فلم يبق معه غير العصبة المؤمنة التي لزمته إلى آخر رمق من حياتها سلام الله عليهم.

٢. رأي المعارضة في خروج الحسين عليه السلام

ونقصد بالمعارضة الطائفة الثالثة التي وصفناها بالنصح والصدق.

أما الطائفة الأولى والثانية فلا رأي لهما لندرس رأيهما، فقد كان منطلق الفئة الأولى في معارضة خروج الحسين عليه السلام العداوة والحقد والمكر بالحسين عليه السلام ، وليس لهم رأي لنناقشه.

وكان منطلق الفئة الثانية الصمت والجبن والخوف من الدخول في مواجهة مسلحة ضد دولة بني أمية، ولم يكن لهم من رأي لنناقشه.

وأما الطائفة الثالثة، فقد كان لهم رأي في النصح للحسين(عليه السلام) والصدق في النصيحة.

وعليه سوف ندرس رأي هذه الفئة من المعارضة، ونناقشها وننظر في رأي الحسين(عليه السلام) في نصيحة هذه الفئة من الصحابة والتابعين رحمهم الله الذين كانوا يصرون على الحسين(عليه السلام) أن يتراجع عن مقصده إلى العراق.

هذه الطائفة تضمّ وجوه الصحابة والتابعين مثل ابن عباس وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية، وهؤلاء كانوا يرون أن الحسين(عليه السلام) لا محالة يقصد احد أمرين لا ثالث لهما:

١ـ إما أن يريد الخروج والثورة على سلطان بني أمية.

٢ـ أو يريد الهروب والتخلص من البيعة.

ولا يتصوّر هؤلاء تفسيراً ثالثاً لخروج الحسين(عليه السلام) إلى العراق غير هذين التفسيرين.

وخروج الحسين(عليه السلام) لا يصح على كل من هذين التفسيرين.

أما على التفسير الأول، فان شيعة الحسين(عليه السلام) في العراق لا يقاومون سلطان بني أمية وجيوشهم، وسرعان ما ينفرطون عنه، ويتخاذلون عن القتال معه، كما تخاذلوا عن أبيه وأخيه من قبل.... وهذه النتيجة المتوقعة تدعمها شواهد وقرائن كثيرة هذا عن الأمر الأول.

وأما إذا كان الحسين(عليه السلام) يغادر الحجاز إلى العراق ليحتمي بأهله في التخلص من بيعة يزيد فإن العراق أرض مكشوفة لبني أمية، ولا يصلح لإيواء الحسين(عليه السلام) وحمايته ولا يصلح أهله للدفاع عن الحسين(عليه السلام) وحمايته.

ولو كان الحسين عليه السلام يطلب التخلص من مبايعة يزيد، فإن اليمن أصلح لأنها أرض جبلية ونائية وبعيدة عن مركز سلطان بني أمية وللحسين عليه السلام فيها شيعة أما العراق فلا يصلح لهذه المهمة كما قال له عبد الله بن عباس ذلك صراحة.

(فإن أبيت إلاّ أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيك بها شيعة، وأنت عن الناس في عزلة)[1].

ولم يكن يغيب عن الإمام الحسين عليه السلام ما كان يراه، ويذكره به الكثير من شيعته والناصحين والمحبين له، ممن كان الإمام لا يتهمهم في النصح والصدق وفهمهم لساحة العراق.

وإذا كان العراق لا يصلح لهذا ولا ذاك فلا محالة فإن الحسين عليه السلام لا يحقق كلا من الهدفين في العراق (إسقاط يزيد أو التهرب من بيعته).

١ـ الكامل لابن الأثير ٤: ٣٨ ـ ٣٩، دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٥.

وبالنتيجة، فإن الحسين عليه السلام يلقى مصرعه في العراق على يد بني أمية على كل حال، وبمصرع الحسين عليه السلام تسقط وتنتهك حرمة عظيمة من حرمات الإسلام على يد بني أمية ويُجَرّأ ذلك بني أمية على انتهاك سائر حرمات الإسلام ولا يبقى أحد بعد الحسين عليه السلام تحترمه بنو أمية، وقد صرح بذلك للحسين عليه السلام عبد الله بن مطيع العدوي الذي التقى الإمام في الطريق إلى العراق على ماء من مياه العرب، فقال للإمام:

(بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ما أقدمك؟ فقال له الحسين عليه السلام: **كتب إليّ أهل العراق يدعونني إلى أنفسهم**). فقال له عبد الله بن مطيع: (أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك... فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً)[1].

١ـ الطبري ٧: ٢٩٠. وكذلك بحار الأنوار ٤٤: ٣٧١.

هـذه خلاصـة آراء الفئـة الثالثـة التـي تميـزت بالنصـح للحسين عليه السلام .

٣. رأي الحسين عليه السلام في الخروج

أما الحسين عليه السلام فكان يرى أمامه خياراً ثالثاً لا هو بالخيـار الأول ولا هـو بالخيـار الثـاني، ولـم يكـن أولئـك الناصـحون للحسين عليه السلام يعون هذا الخيار.

ويتلخص الرأي الذي كان يراه الحسين عليه السلام على ما نظـن في النقاط التالية:

١ـ إن البقاء في الحـرم المكـي كمـا كـان يقـول لـه ابـن الزبير وعمرو بن سعيد الأشدق غير صحيح إطلاقاً، فإن بنـي أمية يخططون لاغتياله عليه السلام في الحرم وهو لا يريد أن يقاتلهم في الحرم، وبذلك يتعرض للقتل والعدوان من قبل بني أميـة وهو مكتوف اليدين وبمصرعه تنتهك حرمة الحرم.

ولذلك قال لابن الزبير:

«**إن أبي حدّثني: أن بمكة كبشاً به تستحلّ حرمتهـا فما أحب أن أكون ذلك الكبش ولئن أقتل خارجاً عنها بشبر أحبّ إليّ أن أقتل فيها. والله لو كنت فـي ثقـب هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتـى يقضـوا فـيّ حاجتهم، والله ليعتدن عليّ كمـا اعتـدت اليهـود فـي السبت**»[١].

٢ـ ولا يمكـن أن يغـادر الإمـام عليه السلام الحجـاز إلـى الـيمن ليحتمـي بجبالهـا الصـعبة عـن البيعـة ليزيـد، فلـم يكـن هـم الحسين عليه السلام أن يمتنع عن البيعة ليزيد فقـط، لـو كـان يطلـب الامتناع عن بيعة يزيد فقط لوسعه ذلـك بـأهون ممـا حصـل لـه عليه السلام ، وإنما كان يريـد أن يعلـن للمسـلمين يومئـذ رفضـه للبيعة...

١ـ مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ١٦٦ .

ومن يتابع مغادرة الإمام(عليه السلام) المدينة إلى مكة على الطريق الأعظم، ومقامه في مكة، في دار العباس بن عبد المطلب، والإعلان عن الخروج إلى العراق، واستنصار الناس في مسيره إلى العراق، يعرف جيداً أن هم الحسين(عليه السلام) في هذه الرحلة، لم يكن الهروب من البيعة، ولو كان ذلك لتغاضى عنه بنو أمية وتغافلوا عنه، وإنما كان الإمام يريد أن يعلن رفضه للبيعة أعلاناً عاماً، والى ذلك يشير الإمام(عليه السلام) في كلمته المعروفة (**والله لا أعطيكم يدي أعطاء الذليل وإلا أفرّ فرار العبيد**). ويقصد بالأول البيعة ليزيد(والله لا أعطيهم يدي) ويقصد(عليه السلام) بالثاني أن يغيّب وجهه عن الساحة فلا يبايع، ولا يعلن الرفض والخروج... والى ذلك يشير(عليه السلام) بقوله(ولا أفرّ فرار العبيد)... وعليه فلا يبقى أمام الإمام(عليه السلام) إلاّ الخيار الثالث وهو الخروج والمقاومة وإعلان الرفض.

ولا يمكن أن يسكت عُمّال بني أمية وجلاوزتهم عن

ذلك، ولا يمكن أن يتغاضوا عنه... فهم يطلبون الحسين(عليه السلام) أينما يذهب حتى يتمكنوا منه فيأخذون منه البيعة أو يقتلوه.

وكان الإمام(عليه السلام) يدرك هذا المعنى جيداً، فيقول في جواب من يطلب منه أن يتحصن ببعض شعاب اليمن من ملاحقة بني أمية.

«**والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي فإذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يذلّهم حتى يكونوا أذلّ من فرام المرأة**».

٣ـ إذن لم يبق للحسين(عليه السلام) خيار إلاّ أن يقدم على التضحية بنفسه وأهل بيته وأصحابه في مواجهة مسلحة لبني أمية فيقتلونه لا محالة فإذا قتلوه كان في مصرعه سقوطاً لبني أمية، وكما قال(عليه السلام) : «**يكونوا أذلّ من فرام المرأة**».

وأصلح أرض للخروج على بني أمية العراق لأنه مركز العالم الإسلامي وموضع شيعته. وقد كتب إليه شيعته بذلك.

وبخروجه (عليه السلام) يتم مصرعه لا محالة، ويكون لمصرعه (عليه السلام) وأهل بيته وصحبه تأثير قوي في إعادة الناس إلى أنفسهم ورشدهم ودينهم.

وكان لابدّ للناس من هزة قوية عنيفة لضمائرهم تعيد إليهم وعيهم، وإرادتهم، وقيمهم، وتشعرهم بعمق الكارثة التي حلّت بهم، وتبعث الندم في نفوسهم... وكان خروج الحسين (عليه السلام) ومصرعه بالصورة المفجعة التي يحدثنا بها التاريخ هو مبعث هذه الهزة العميقة في ضمائر المسلمين يومئذ.

ولقد نبّهت شهادة الحسين (عليه السلام) وأهل بيته وأصحابه، بالطريقة المفجعة التي تمت بها، ضمائر المسلمين، وأشعرتهم بالندم، ومكنتهم من أن يستعيدوا وعيهم وإرادتهم، من جديد، فيفكروا ويقرروا مصيرهم بأنفسهم[1].

١ـ وارث الأنبياء : ٢١٩ .

وهذا الخيار الثالث لم يدركه ابن عباس وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية والآخرون ممن كانوا ينصحون الإمام (عليه السلام) بعدم الخروج.

ونود أن نسجل هنا ملاحظة هامة وهي أننا نحتمل أن بني أمية كانوا يعملون لمنع الحسين (عليه السلام) من الخروج إلى العراق وكان لهم دور غير مباشر في توجيه وتحريك هذه المعارضة، ليتقبل الحسين (عليه السلام) أحد الخيارين السابقين فلا يكون لموقف الحسين (عليه السلام) عندئذ خطر على سلطان بني أمية وخلافتهم في العالم الإسلامي، وكان الحسين (عليه السلام) واعياً للمؤامرة الأموية، ولم يمكنهم من نفسه، كما يحبون..

الفهرس